

مع القوصوني في قاموسه

الدكتور مختار هاشم

١ - لقد ألف ابن سينا كتاب القانون في الطب استجابة لانتقال بعض الخصاص من اخوانه .

أما مدّين بن عبد الرحمن القوصوني المصري فقد ألف (قاموس الاطباء وناموس الألبيا) ابتداء . تلبية لصوت صادر من أعماق نفسه يدعو للنهوض بمثل هذا العمل الجليل .

فالمعجمات وافرة في اللغة والأدب وطبقات الرجال وأبناء البلدان ومصطلحات العلوم ومصطلحات التصوّف ولكنك لاتجد في المكتبة العربية معجماً طبياً عربياً يلبي حاجة المدارس دون الاضطرار الى عناء طوييل في تصفّح المؤلفات الطبيّة العربية المطوّلة .

وما قولي هذا على وجه الاطلاق فقد ألف أحمد بن محمد بن الخشاء من رجال المئة السابعة للهجرة كتاباً في تفسير الالفاظ الطّبية واللغوية الواردة في كتاب المنصوري للرازي سمّاه (مفيد العلوم ومبيد الموموم) وألف رضي الدين محمد بن أحمد الغزّي كتاباً (في ذكر اعضاء الانسان)^(١) وألف غيرهم ممن لم يصل اليهم اطلاعي الحدود .

ولكن هذه الأعمال كانت تفتقر الى الشمول ، مما جعل تأليف كتاب من هذا الطراز مطلباً لاغناء عنه .

(١) يوجد في المكتبة الظاهرية كتاب في اسماء اعضاء الانسان لنادر بن بديع الزمان القاجاري ولكنه مؤلف في زمان متأخر .

وكان شعوراً خامره بضرورة الأخذ بيد الناشئة التي تسعى الى تحصيل هذه الصناعة الشريفة في وقت أخذت فيه شمس الحضارة العربية تميل نحو الغروب .
وكان رئيس اطباء في دار الشفاء بمصر عزّ عليه أن يقال : ان المتأخرين عاجزون عن الاتيان بما جاء به الأوائل فاستشهد بقول العلامة محمود بن مسعود الكازروني :

ليس كلمة اضّرّ بالعلم من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئاً . . الى آخر قوله .

ويقول محمد مجد الدين^(١) في قاموسه المحيط :

ولو لم أخش ما يلحق الزكّي نفسه من المعرة والذمان لتثلث بقول أحمد بن سليمان اديب معرة النعمان ، ولكن اقول كما قال ابو العباس [المبرد] في الكامل وهو القائل المحقّ : ليس لقدّم العهد يفضل القائل ولا لحدثانه يهتّم المصيب .

وبلغ اعجاب صاحبنا بالقاموس المحيط مبلغاً عظيماً فلا غرو اذا سمى كتابه (قاموس اطباء وناموس الالبتا) ، ورتبه على ترتيب القاموس انوالياً وفصولاً وخذنا حذوه فروعا واصولاً . ومجد الدين - على حد قوله (واحد الزمان وفريد الأوان ذو التحقيق والفصاحة والتدقيق والبلاغة ، افصح اللغويين)

هنا من حيث الشكل ، أما من حيث المضمون فقد اصاب صاحبنا عندما قال : لم أسبق الى أمثاله ولم ينسج على منواله ، إذ أنه :

معجم لغوي ينقل عن الازهري وابن سيده وابن المكرم وغيرهم ولكنه لا يستوفي المادة كلها بل يختار منها ما يتصل بالطب ولو بأدنى سبب او لا يتصل به البتة فيذكر الجموع المختلفة واللغات المختلفة الواردة في كلمة .^(٢)

(١) محمد بن يعقوب الفيروزبادي الملقب بمجد الدين وقد جاءت في الأصل محمد شمس الدين

سهواً من النسخ .

(٢) انظر (كبد) مثلاً .

وقد يظرفنا بشيء من الحديث او شيء من الشعر كما في المادة التالية :

- الخبّ (بالفتح ويكسر) : الخداع الذي يسعى بين الناس بالفساد .
 وفي الحديث : لا يدخل الجنة خبّ ولا خائن .
 وفيه ايضاً : المؤمن غرّ كريم والكافر خبّ لئيم .
 الغرّ (بالكسر والغين المعجمة) : الذي لا يفتن للشرّ .

وما رأيته منسوباً للشيخ الرئيس :

زمان كل حُبّ فيسه خبّاً وطعم الخيل خَلّ لو يُذاق
 له سوق بضاعته نفاق فنايقُ فبالنفاق له نفاق

معجم طبي ينقل عن ديسقوريدس وجالينوس والشيخ ابن سينا والقرشي

الدمشقي المعروف بابن نقيس^(٤) ويذكره باسم القرشي (وترسم احياناً قرشي) ،
 او الشارح القرشي أو الإمام القرشي او العلامة ابن نقيس والنقل من كتاب الموجز
 او كتاب الشامل وغيرها . وينقل عن عبد الله بن البيطار وابن الكتيبي وغيرهم .

ويقول ان كتابه لم ينسج على منواله لما اشتمل عليه من ذكر انواع المفردات
 ومن ذكر اسماء المركبات ومن ذكر أعضاء بدن الانسان ومن ذكر الأوصاف المتعلقة
 بغالب الأعضاء ومن ذكر الأمراض ، كل فرد منها مع ذكر تعريفه وسببه وعلامته
 وعلاجه ومن ذكر الأمور الطبيعية والسنة^(٥) الضرورية ومن ذكر امور مهمة
 وفوائد كثيرة حجة .^(٦)

وهذه هي موضوعات الكتب الطبية العربية الجامعة كالقانون مثلاً إلا انها
 رتبت ترتيباً الفبائياً بحيث يجد الدارس او الباحث بغيتة بدون عناء .

(٤) هكذا يذكره بدون آل التعريف . ولكن الناسخ ساعه الله سماه بابن تميم .

(٥) الكلمة مصحفة كما يسدو والصواب : السنة وفي الظاهرية بخطوطه برقم ١٧٤٩ عنوانها

تحصيل الصحة بالاسباب الستة .

(٦) من المقدمة باختصار .

ولولا ما اعتور هذا المعجم من نقص في بعض المواد لاحتل مكان الصدارة بين المعجمات الى جانب صنوه اللغوي القاموس المحيط ، ومجد الدين لم يسم معجمه بهذا الاسم جزافاً فقاموس في العربية وأوقيانوس في اليونانية يرجعان الى أصل لغوي قديم واحد .

٢ - واما ما وقع في هذا الكتاب من سقوط كلمات او جُمَل او تصحيف فقل ان تجد مخطوطة عربية لم تعث بها ايدي النساخ قليلا او كثيراً ، أما في هذه المخطوطة فالتحريف كثير ولكنني اذكر أمثلة منه :

(ضرب)

الضريب : الرأس لكثرة اضطرابه والبطن من الناس وغيرهم والتلسيج والتصقيع والجليد والرديء من الحمض (جاءت بصاد مهملة) او ماتكسر منه والشهد أشد بعضهم (جاءت أشد بعضهم)

[يذَّب حِمَا الكأس فيهم اذا انتشوا ديب الدجى وسط الضريب المعتل والصواب ديب الدب ولكن لا يمكننا لوم النساخ فقد جاءت كذلك في لسان العرب .

(طب) -

قال فروة بن مسيك المرادي :

فان نَغَلِب فغَلَابون قِدماً وإن نَغَلِب فغير مُغَلَّبِينَا
فإن إن طِينَا جِن ، ولكن منايانا ودولة آخرينا
كذلك السدھر دولته سجسال تكّر صروفه حيناً فعينا
والطِب هنا الشأن والعادة .

هكذا جاءت الايات في لسان العرب أما كيف جاءت في مصورة المخطوطة

فليرجع اليها .
(فرق) .

١٠ - نقل ابو عبيد الإتياف أنه يسع ثلاثة اصبع .

وهذا تصحيف صوابه : ان الفرق يسع ثلاثة أصع ، والأصع والأصوع جمع صاع .

٣ - بعد القاء هذه النظرة العامة لناخذ في استجلاء كلمات من باب الهمزة .

الألاء (كالعلاء ويُقصر) شجرة الدفلى وسيأتي ذكره في د ف ل والواحدة^(٧) منه الألاء .

د ف ل

الدفلى (كذكري) شجر مَرَقْتَال . قال الشيخ^(٨) : منه برّي ومنه نهري . والبرّي ورقه كورق الحقاء بل أدق . وقضبانه طوال منبسطة على الأرض وعند الورق شوك وينبت في الخرابات . والنهري ينبت في شطوط الانهار وترتفع اغصانه على الارض وشوكه خفي وورقه كورق الخلاف وورق اللوز عريض مَر الطعم جداً [وأعلى ساقه اغلظ من اسفله ، وفقّاحه كالورد الأحمر جداً]^(٩) وعليه شيء مجتمع مثل الشعر ، وثمرته حلبة مفتحة محشوة شيئاً كالصوف .

هذا وصفه النباتي ويليهِ ذكر طبعه وافعاله وخواصه وسميته تقيلاً عن الشيخ

وغيره .

الآء (كالعاع) ثرة شجر السرح وهو عنب يؤكل وسيأتي ذكره في س ر ح .

س ر ح

السرح (بالفتح) : ادرار البول بعد احتباسه .

وشجر كبار طوال يستظل به ، ينبت بنجد وله ثم اصفر كالعنب يسمى الآء يؤكل ويتخذ منه رُباً .

أقول إن تعريف السرح والآء مأخوذ في الأصل من كتب اللغة باعتبار انه ليس دواء أما الألاء او الدفلى فمقتبس من كتب اللغة وكتب المفردات معاً وكل منها يذكر صفات وخواص يغفلها الآخر ولكن لاتعارض بينها .

(٧) في الأصل : الواحد .

(٨) اي ابن سينا .

(٩) الاستدراك من القانون .

في كتاب الصيدنة :

آء : نبت ليس من الأدوية ، وإنما ذكرته بسبب رديف الهمزة الممدودة وهو الألف . قال ذو الرمة :

ألمه آء وتَسوم وَعَقَبْتَهُ من لائح المرو ، والمرعى له عَقَب
اي انه يرعى في هذا مرة وفي هذا مرة .

ولا اريد الخوض في كتب اللغة والمفردات لاسيما وان صاحبنا أتى بما يروي الغليل ولكن ظاهرة استوقفتني : إن التشابه اللفظي بين الآء والآء قد اوقع بعض اللغويين في الالتباس فبعضهم ظنّ انها شجرة واحدة فهذا ابن الاعرابي يقول :

من الشجر الدفلى وهو الآء والآء والحبن^(١٠) وكله الدفلى^(١١) . وتبع التباس الاسماء الخلط بين الأوصاف والخواص . وثارت لذلك مناقشات بين من يوحد بينها وبين من يميّز .

وثارت مناقشة أخرى هل الآء هو السرح نفسه او ثمره بخاصة ..

فعندما احتج أصحاب الرأي الأول بقول زهير بن ابي سلمى :

كأن الرجل منها فسوق صَعَل من الظَّمان جَوْجُوهُ هِسْواء
اصـلـك مصـلم الاذنين اجنى له بالسلي تَسوم وآء

وضع ابو زيد الأمور في نصابها بقوله :

الآء عنب ابيض^(١٢) يأكله الناس ويتخذون منه رُباً وعذر من سمأ بالشجر انهم يسمون الشجر باسم ثمره فيقول احدهم : في بستاني السقرجل والنضاح وهو يريد الأشجار ،

(١٠) تذكرة داود : صَحَّف الحبن الى الجبن .

(١١) لسان العرب : دفل

(١٢) يقولون تارة ابيض ويقولون تارة أصفر وهذا الاختلاف تابع لدرجة النضج .

ولو اخذت في تصوير هذه المعركة اللغوية لطال الحديث ، ولكن لأتمالك عن
رواية ابيات أنت على ذكر هذين النباتين .

جاء في كتاب الصيدنة مايلي :

دخل أعرابي الحضرمي فرأى فيه مكاءً مئياً فقال :

ألا ايها المكاءُ مالك هاهنا ؟ الأءُ وتَسوومُ فسأين تبيض
ترفُوعُ اى أرض المكائى واجتنب قُرى الريف : لاتصبحُ وأنت مريض

وقال المبرد في الكامل :

الألاء : شجر الدفلى وأنشد لأبي نواس :

بَسَدَلتْ مِنْ نَفْحَاتِ الْوَرْدِ بِسَالِءٍ

وَمِنْ صَبْوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

فإذا صحَّ أن المبرد استشهد بهذا البيت في معرض كلامه عن الألاء فذلك مستغرب
لان ابا نواس يذكر (الآء) لا (الألاء) .

أما البيتان اللذان جاءا على لسان الأعرابي فيعبران عن تجربة حية عاناها فهو
يحشى قرى الريف ذات المعيشة المعقدة بالنسبة اليه اذ لا يدري اين يبيت ولا
يدري كيف يتقى المرض الذي حدس انه ملاقيه لو خامته هواء الريف فهو في
الظاهر يخاطب المكاء ولكنه في الحقيقة يخاطب نفسه . فهو قد اجتوى البيئة
الجديدة وحن الى البادية بعكس ابي نواس الذي استهواه زخرف الحضارة واستغنى
بالحجر عن اللبن .

٤ - ويقضي البحث بيان محلّ هذين النباتين في التصنيف النباتي وتحديد
ما يقابلها في اللغة العلمية .

واعتمادا في ذلك على كتب علم النبات ، ومعجم اسماء النبات صنعة الدكتور احمد
عيسى .

ونباتات العربية السعودية تأليف مجاهد وحمودة وهو مؤلف باللغة الانكليزية ، شأنه في ذلك شأن سواه اذ لم يسبق في حدود علمي ان درس عالم غربي او عربي نباتات قطر من الأقطار العربية وألف فيها كتابا باللغة العربية ولكن مما يتلج الصدر ان هذا الكتاب قد ألحق به مسرد بالاسماء العربية الدارجة على ترتيبين (لاتيني - عربي و عربي - لاتيني) .

الدفلى (عند أحمد عيسى)

Nerium oleander L.

دفلى - حَبْن

خر زهره (تأويله سم الحمار) وقد عرّب خر زهرج ، ورد الحمار (في مصر الآن)

Fam. APOCYNACEAE

من فصيلة الدفليات .

السرّح (عند أحمد عيسى)

CADABA farinosa FORSK

السرّح (قال ابن سيده وللسرّح عنب

يسمى الآء) - قَرّة - عَسَل - طَرِيح

MAERUA crassifolia FORSK

مرو - سرّح (البن)

M. rigida R. BR.

خرنباش - سرّح

Fam. CAPPARIDACEAE

والنباتات الثلاثة من فصيلة الكبتريات

سرّح (عند مجاهد وحمودة)

Cotoneaster nummularia

Maerua crassifolia

M. uniflora

Fam. Rosaceae

النبات الأول من فصيلة الورديات

Fam. capparidaceae

والنباتان الآخران من فصيلة الكبتريات (١٣)

(١٣) وإلى نفس الفصيلة ينتسب نبات CLEOME الذي يسمى بالعربية ذفراء :

يتبين من ذلك أن كلا المرجعين يقابل كلمة (السرح) بما يدل على ثلاثة نباتات مختلفة . والعكس صحيح إذ نجد للنبات الواحد عدة أسماء .

وإذا كانت لغة الأدب لا تجد حرجاً في أن تدل الكلمة الواحدة على عدة معانٍ ، وأن تترادف الكلمات للدلالة على معنى واحد فإن لغة العلم تأتي ذلك ولا مناص من أن يجري الاصطلاح على تسمية واحدة للنبات الواحد .

ومن مآثور القول « لا علم بدون لغة مُحَكِّمة » إذن لا بد لنا من اعتقاد منهج يهدى العقبات في سبيل الوصول الى الغاية . ولا اتصدى لاقتراح قواعد يمكن أن يقوم عليها هذا النهج بل اعود الى تسمية هذين الجنسيتين من النبات كما جاءت في المرجعين الآنف ذكرهما . واما النوع المندرج في الفصيلة الوردية فأضرب عنه صفحاً .

	بجَاهِد وَحْسُودَة	أَحْمَد عَيْسَى
CADABA farinosa FORSK	—	السَّرْح
C. glandulosa FORSK	قَرْمَطٌ ^(١٤) ، كَرْمَت	—
C. longifolia DC	—	—
C. rotun difolia FORSK	قَطْب	القَطْب
MAERUA crassifolia FORSK	سَرَح	مَرُو، مَرَح (الين)
M. rigida R. BR.	—	خَرْنَبَاش، سَرَح
M. oblongifolia	—	قَصِيف (الين)، شَيْفَر، عود السم
M. uniflora VAHL.	سَرَح	مَرُو (سوريّة)

إذا أمعنت النظر في هذا الجدول ظهرت لك أمور :

(١٤) انظر لسان العرب (قرمط) .

أولاً : ان التسمية الغالبة على أنواع CADABA هي السرح والقضب (او القطب) .

ثانياً : ان التسمية الغالبة على أنواع MAERUA هي السرح والمرو .

ثالثاً : السرح والقضب والمرو اسماء عربية اصيلة .

القضب

في لسان العرب : القضب ما أكل من النبات المقتضب غصاً وقيل هو

الفصائص (ما يعرف في عامية الشام بالفصة) .

القضب نبات سهلي ينبت في مجامع الشجر ... الى

آخر ما جاء في تحليته عن ابي حنيفة^(١٥) .

في قاموس الاطباء : القضب القت .

والقضب : كل شجر بسطت^(١٦) اغصانه .

إذن فالقضب له معنيان وحديثنا عن الشجر الذي حلاه ابو حنيفة .

المرو

في لسان العرب : المرّو : شجر طيب الرائحة .

المرّو : ضرب من الرياحين .

إذن فالمرّو له معنيان ايضاً وحديثنا عن الاول منها أما الثاني فتجد

له في معجم اسماء النبات نحو عشرين اسماً بين عربي وفارسي ومنها

الخرنباش الذي ورد مرادفاً للسرح .

(١٥) انظر النص كاملاً في (لسان العرب) .

(١٦) لعل الصواب : انبسطت .

رابعاً : أما كيف انطبقت التسمية العربية على التسمية العلمية فلا يحتاج إلى تأويل إذا علمنا أن هذه من وضع عالم النبات الشهير فورسكال P. FORSKAL الذي درس نباتات الجزيرة العربية وقد أخذ CADABA من (قضب) الذي سمعه من أفواه عرب الجزيرة العربية وأخذ MAERUA من (مرو) .

وقد اطلق الاسمين على جنسين وميّز كل نوع من انواع الجنس بصفة بارزة يختص بها جرياً على الطريقة التي شرعها استاذ العالم السويدي كارل فون لينيه^(١٧) الذي عُده بحق مؤسس التاريخ الطبيعي الحديث فهو الذي اعتدى إلى طريقة التصنيف الطبيعي للكائنات الحية .

٥ - وختاماً أقول :

كان بوذي ان اسير مع القوصوني شوطاً أطول فابّين حقيقة (البناء) و (الشداء و المصاخ) ولكن بدا لي ان السير قد طال وينبغي الوقوف عند هذا الحد .
ودعائي لمدين بن عبد الرحمن ما دعا به لنفسه :
غفر الله له كل إضر ، وحمل عنه كل إضر ، ووقفه لكل محمود ميثاق وإضر .^(١٨)

الدكتور مختار هاشم

دمشق في ٢٣ / ٥ / ١٩٨٢

(١٧) انظر LINNÉ في الموسوعة الفرنسية Universalis

(١٨) من مقدمة قاموس الأضيأ . ومن الجدير أن يذكر أن المؤلف قد جاء في دعائه بالمصافي

الثلاثة التي ذكرها الفيروزبادي في القاموس المحيط : الإضر : العهد والذنب والتبغر .